



جامعة الشهيد خضر الوائلي
كلية العلوم الإسلامية



بالتعاون مع : مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس

الندوة العلمية الدولية :

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي

التنمية الاجتماعية والثقافية

الأربعاء والخميس : 30 و 31 أكتوبر 2024م

بسم الله الرحمن الرحيم

علم اجتماع المعرفة عند مالك بن نبي ودوره في بناء الرؤية الكونية السننية

وتحقيق التنمية الاجتماعية والثقافية

**The sociology of knowledge according to Malik ben Nabi and its role in
building the Sunany cosmic vision
that achieve social and cultural development**

د.عمار قاسمي

أستاذ محاضر (أ)

قسم العقيدة ومقارنة الأديان، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Emir Abdelkader University of Islamic Sciences

ammargasmi@univ-emir.dz

ملخص:

تظهر مشكلة المعرفة حين يبدأ التفاعل بين الفكر والواقع؛ لهذا اشتغل الفلاسفة طويلا يبحثون عن مصادر المعرفة التي يوظفها الفكر ليتعامل مع الواقع؛ فذهب بعضهم إلى أن أدوات فهم الواقع تُستمد من الواقع ذاته، بينما اعتبر البعض الآخر أن الواقع خيال ووهم، والحقيقة كل الحقيقة تكمن في العقل وحده، وبقيت الفلسفة تتراوح بين جدلية الذات والموضوع إلى يوم الناس هذا، ولو أدخلت الوحي ضمن منظومتها المعرفية لوفر عليها الوقت والجهد وهداها إلى الصراط المستقيم؛ بحيث يتولى الوحي شحن العقل وإمداده بالكليات والمفاهيم، والعقل يتفاعل مع الواقع والوجود بهذه الشحنة ليكتشف

السنن الكونية والفطرية، ويباشر فعل التسخير والإعمار، هذه الحركة التي يقوم بها العقل في نشاطه خارج الوحي سميت فلسفة، أو فكر، وهي التي أنتجت العلوم في النظام المعرفي الغربي.

وبما أن علم الاجتماع في صورته الحالية هو نتاج حركة العقل خارج نطاق الوحي، فهو يعتبر إنتاج معرفي يحمل خصوصية النظام المعرفي الغربي؛ ومالك بن نبي بعمق فكره ودقة ملاحظته جعله يدرك أهمية علم اجتماع المعرفة في بناء الرؤية الكونية، وتحديد شروط التنمية وتحقيق فعاليتها، وضبط مسارها؛ من خلال تصوره للحركة الجدلية في ثلاثية: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وارتباطها بالحركة الجدلية لثلاثية: الإنسان، والتراب، والوقت.

يهدف البحث إلى الكشف عن مساهمة علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية، وتحقيق التنمية الاجتماعية والثقافية التي تعين على الإقلاع الحضاري.

الكلمات المفتاحية: التنمية الاجتماعية؛ التنمية الثقافية؛ علم اجتماع المعرفة؛ مالك بن نبي؛ الرؤية الكونية السننية.

Summary :

The problem of knowledge appears when the interaction between thought and reality begins, so philosophers have worked for a long time looking for sources of knowledge employed by thought to deal with reality, some of them went to the fact that the tools for understanding reality are derived from reality itself, while others considered that reality is fiction and illusion, and the truth all truth lies in the mind alone, and philosophy remained ranging from the dialectic of the self and the subject to this day people, and if it introduced revelation within its knowledge system, it would have saved it time and effort and guided it to the straight path, so that Revelation charges the mind and supplies it with faculties and concepts, and the mind interacts with reality and existence with this charge to discover the cosmic and innate norms, and embarks on the act of harnessing and reconstruction, this movement carried out by the mind in its activity outside the revelation was called philosophy, or thought, which produced science in the Western cognitive system.

Since sociology in its current form is the product of the movement of the mind outside the scope of revelation, it is considered a production of knowledge that carries the specificity of the Western cognitive system, and Malik Bennabi with the depth of his thought and the accuracy of his observation made him realize the importance of the sociology of knowledge in building the cosmic vision, determining the conditions for development and achieving its effectiveness, and controlling its course, through his perception of the dialectical movement in the trilogy: the world of ideas, the world of people, and the world of things, and its connection to the dialectical movement of the trilogy: Man, dust, time.

The research aims to reveal the contribution of the sociology of knowledge in building the Sunni cosmic vision, and achieving social and cultural development that helps the cultural take-off.

Keywords: social development; cultural development; sociology of knowledge; Malik ben Nabi; Sunni cosmic vision.

مقدمة

ترتبط الثقافة بالاختيارات التربوية والتعليمية، ويرتبط التعليم بالإنتاج المعرفي، ويرتبط الإنتاج المعرفي بالرؤية الكونية، وترتبط الرؤية الكونية بطبيعة نظرية المعرفة التي تحددها مصادر المعرفة التي اعتمدها ذلك المجتمع، والتي تمثل في النهاية جزء من مرجعيته العقديّة وهويته الحضارية، لهذا فالتنمية الاجتماعية والثقافية تحددها طبيعة الأنظمة المعرفية ومدى انسجامها وتطابقها مع المرجعية العقديّة والهوية الحضارية؛ ولما كان الاختلاف الجوهرى بين الاختيار الإسلامى والاختيار الغربى يكمن فى مصدر من مصادر المعرفة هو الوحي، فإن ذلك ينعكس على المسار المعرفى والمنهجى لكل منهما؛ فالإسلام يسعى إلى تحقيق التوازن بين الروحي والمادي، الأخرى والديني، بينما الغرب يتجه فقط إلى الدنيويات وبشكل متطرف جدا.

ولما كان التدافع الحضاري منذ نهاية الخلافة الراشدة قد أفضى إلى غلبة النموذج المعرفى الغربى، فإن اختياره المادي قد هيمن وانعكس على كل المنظورات الحضارية الأخرى بما فيها المنظور الإسلامى، فحصلت مفارقة شبيهة تامة بين الفكر والواقع الاجتماعى والثقافى.

وبما أن علم الاجتماع فى صورته الحالية هو نتاج حركة العقل خارج نطاق الوحي، فهو يعتبر إنتاج معرفى يحمل خصوصية النظام المعرفى الغربى؛ فهو من جهة يدرس العلاقات الاجتماعية فى البيئة الثقافية الغربية، وهو من جهة أخرى يساهم فى إرساء المقولات المركزية التى تشكل البنية التصورية وتؤسس الرؤية الكونية الغربية، وهذا بالذات ما يعين الفرق بين علم الاجتماع، وعلم اجتماع المعرفة.

ولما كان مالك بن نبي قد أدرك بعمق فكره، ودقة ملاحظته أهمية علم اجتماع المعرفة فى بناء الرؤية الكونية، وتحديد شروط التنمية وتحقيق فعاليتها، وضبط مسارها؛ من خلال تصوره للحركة الجدلية فى ثلاثية: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وارتباطها بالحركة الجدلية لثلاثية: الإنسان، والتراب، والوقت: فكيف يساهم علم اجتماع المعرفة البنّابى فى بناء الرؤية الكونية السننية؟ وكيف يؤدي ذلك إلى التنمية الاجتماعية والثقافية التى تحقق الإقلاع الحضارى؟

هذه الإشكالية التى تتفرع عنها المشكلات الجزئية التالية:

ما هى السمات والخصائص التى تجعل علم اجتماع المعرفة البنّابى يختلف عن علم اجتماع المعرفة الغربى؟ وكيف يساهم هذا العلم فى بناء الرؤية الكونية السننية للمسلم؟ وما أثر هذه الرؤية فى تحقيق التنمية الاجتماعية والثقافية والإقلاع الحضارى؟

ولما لم يكن لمالك بن نبي مؤلف مخصوص ينفرد بدراسة أهمية علم اجتماع المعرفة ودوره فى بناء الرؤية الكونية التى تحقق الفعالية التى تصل بالإنسان إلى التوتر المطلوب الذى يحقق التركيب بين عناصر الحضارة: الإنسان والتراب والوقت، وتحقق الانسجام بين العوالم الثلاثة: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، فإن المنهجية الأساسية التى سيعتمدها البحث هى الاستقراء. قلت الأساسى

لأنه لا ضير من إتباع مناهج أخرى؛ كالمناهج الاستردادي إذا تعلق الأمر بالرجوع إلى حوادث التاريخ للاعتبار بها، والمنهج الاستنباطي إذا اضطر البحث إلى تحليل النصوص والشواهد العلمية، والمنهج المقاصدي الاستشراقي إذا تعلق الأمر بالبحث عن المآلات.

ولرصد التساؤلات السابقة كان محتوى البحث مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

تضمنت المقدمة تمهيدا يُبين التعريف بالموضوع وأهميته، وأهم الإشكاليات التي ستتم معالجتها، والمفردات التي تعطي صورة عن مضامين المباحث، والمنهجية المختارة لمعالجة قضاياها، وإلقاء نظرة على الدراسات السابقة والصعوبات التي اعترضتنا خلال البحث.

أما المبحث الأول: فقد اختص بفحص خصوصية علم اجتماع المعرفة البنائي؛ حيث وقف عند تجربة ابن خلدون وتشكل الإرهاصات الأولى لعلم اجتماع المعرفة، وفحص مفهوم علم اجتماع المعرفة: المسار والمآل، ثم بين تجربة مالك بن نبي وخصوصية علم اجتماع المعرفة عنده، وختم هذا المبحث بتقييم التجربة البنائية في هذا المجال.

وأختص المبحث الثاني: بمدارسة دور علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية؛ فبدأ بفحص علاقة نظرية المعرفة بالرؤية الكونية، ثم البعد المعرفي السنني في علم اجتماع المعرفة البنائي، ثم وقف عند أثر علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية، وختم هذا المبحث بالكشف عن معايير فعالية الرؤية الكونية السننية البنائية

أما المبحث الثالث؛ فقد اختص ببحث أثر الرؤية الكونية السننية البنائية في تحقيق التنمية الاجتماعية والثقافية؛ من خلال بيان كيفية تحقيق الاندفاع نحو التنمية الاجتماعية والثقافية بالرؤية الكونية البنائية.

المبحث الأول: خصوصية علم اجتماع المعرفة البنائي.

تظهر مشكلة المعرفة حين يبدأ التفاعل بين الفكر والواقع؛ لهذا اشتغل الفلاسفة طويلا يبحثون عن مصادر المعرفة التي يوظفها الفكر ليتعامل مع الواقع؛ لأن الفكر الذي لا يمت بصلة إلى واقع حياة الناس فهو عديم الجدوى⁽¹⁾، فهناك واقع وهناك فكر وهناك تفاعل.

والإسلام حسم الأمر في هذه المسألة؛ حيث بيّن أن هناك وحي وهناك وجود وهناك إنسان مكلف بالتسخير والإعمار في الوجود، وهو مخير بين أن يستند في رحلة تسخيره وإعمارهِ إلى الوحي، أو يستغني عنه، فالوحي يمد العقل بالكليات والمفاهيم، والعقل يتفاعل مع الوجود ليكتشف السنن الفطرية والكونية ويباشر فعل التسخير والإعمار، هذه الحركة التي يقوم بها العقل، وهو يسعى إلى الموازنة بين الوحي والوجود هي التي توصله إلى الحق بهداية الله عز وجل قال تعالى: ﴿سُرِّبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي

¹- نبيل عبد الحميد، عبد الجبار. تاريخ الفكر الاجتماعي، دط، دار دجلة: الأردن، 2009م، ص4.

أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿فصلت:53﴾. أما إذا استغنى عن الوحي واعتقد بكفاية عقله وحواسه فسيؤول به الأمر إلى ما آل إليه الغرب المعاصر.

والفكر الاجتماعي نشأ ونما في رحم هذه الحركة ثنائية المسار؛ مسار الاستمداد من الوحي، ومسار الاستغناء عن الوحي، وكُتِبَ له أن يستقل كعلم في ظل المسار الثاني الذي استغنى عن الوحي، لهذا وقع علماء الاجتماع الغربيين في مشكلة الجذور والأصول والبدايات الأولى للأفكار الاجتماعية: من أين يأتي الفكر بالمعرفة التي يتفاعل بها مع الوجود؟ وراح كل تيار فلسفي يسعى جاهدا لإثبات فرضياته وتأكيد مسلماته؛ فاعتقد البعض أن الإنسان يولد وهو مبرمج مسبقا بمبادئ فطرية، واعتقد البعض الآخر أن الإنسان يولد وهو صفحة بيضاء، وبقي الغرب يتراوح بين هذين التيارين إلى يوم الناس هذا؛ تيار يلغي الذات ويتجه إلى الموضوع (الوجود)، وتيار يلغي الموضوع ويتجه إلى الذات. والحقيقة أن عقل الإنسان فيه جانبين؛ جانب فطري يتمثل في تلك الأوليات الفطرية المتمثلة في التوحيد ((يولد الإنسان على الفطرة))، والجانب الثاني فارغ؛ الإنسان مسئول على شحنه، فلا بد للفكر أو العقل أن يشحن نفسه بكليات تجعله يستطيع أن يتفاعل مع الواقع تفاعلا صحيحا متوازنا. وهنا يظهر دور الدين وأهميته بالنسبة للإنسان، فهو المصدر الوحيد للكليات والمفاهيم الكلية التي تحقق له التفاعل الصحيح والمتوازن مع الواقع. والدين وحده هو الذي يحقق تكامل المعارف "فالمعرفة الإنسانية وحدة متكاملة وتجزئتها ضرورة ثقافية ملحة، ولكن الإبقاء على هذه التجزئة والإمعان في التمييز يؤدي إلى تعثر العقل الإنساني ويخلق له مشاكل كسوء الفهم، وقصر النظر إلى جانب التحيز والظلال، الأمر الذي يعاني منه المجتمع الإنساني اليوم"⁽¹⁾.

إذن فعمر علم الاجتماع يتجاوز بكثير تاريخ ميلاده، فإذا كان عمره كما يزعم المؤرخون له، لا يتجاوز مائة وخمسون عاما، فإن عمره الحقيقي مرتبط بالتاريخ الطويل للإنسان، وطبيعته تختلف جذريا عن الطبيعة التي رسمها له الغرب وألصقها ببيئته الاجتماعية وتجربته التاريخية والحضارية، لهذا سيحاول البحث أن يقف عند تجربة ابن خلدون ليكشف عن الإرهاصات الأولى لتشكّل علم الاجتماع عموما وعلم اجتماع المعرفة على الخصوص، ويبين الأبعاد السننية التكاملية في هذا العلم.

1. تجربة ابن خلدون وتشكّل الإرهاصات الأولى لعلم اجتماع المعرفة: عبد الرحمن ابن خلدون عاش بين (732-808)هـ، بينما الإنتاج المعرفي توقف في القرن السادس للهجرة.

تخرج ابن خلدون من جامع الزيتونة، وكان قريبا من الملوك والسلطين؛ في الأندلس، والمغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، وعانى من حبالهم كثيرا. مارس القضاء المالكي في مصر إبان عهد المماليك، وعاش فترة الاحتلال المغولي، واستوعب جيدا تاريخ ما سمي بالعصور الوسطى، هذه الظروف ساعدته ليكون فلتة زمانه، بطرحه نظرية العمران البشري، ونظرية الدولة وغيرها من النظريات التي تكتنزها

¹- محمد عاطف، غيث. دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، 1975م، ص3.

المقدمة. فإلى أي حد يمكن الحديث عن فكر اجتماعي عند ابن خلدون؟ وهل تجربته تشكل إرهاصات فعلية لعلم اجتماع المعرفة؟

بدأ ابن خلدون بالسياسة، فهاله ما وجد عليه القصور من الداخل، فلجأ إلى التاريخ ليفهم أمر السياسة، فوجد نفسه خارج البلاط أمام الظواهر الاجتماعية، وأكتشف أن فهم الظواهر السياسية والظواهر الاجتماعية والاقتصادية وغيرها يرتبط بدراسة تاريخها دراسة علمية؛ لتتبعها في تطورها، ومسارها، ومآلها، ورصد السنن الكلية والجزئية التي تحكمها، وهذه الفكرة وُجدت فيما بعد عند علماء الاجتماع الوضعيين؛ أوغست كونت Auguste Comte (ت:1857م)، وإيميل دوركايم Émile Durkheim (ت:1917م)، وغيرهما، وحتى عند الماركسية. لكن وجد ابن خلدون نفسه أمام مشكلة نزاهة التاريخ من التحريف والتزييف، فإذا كان التاريخ هو منطق العمران البشري وأساسه المنهجي، فكيف يمكن تحويل التاريخ إلى علم حتى يصبح مدخلا صحيحا لفهم العمران البشري؟ هنا اهتدى ابن خلدون إلى السنن الإلهية التي تحكم الظواهر التاريخية، بل تحكم الآفاق والأنفس جميعا، وانطلاقا من هذه الرؤية المنهجية العلمية السننية أسس ابن خلدون الجوانب المعرفية الجديدة لعلم التاريخ، وعلم العمران البشري، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، ووضع لبنة منهجية أساسية -لم يسبقه إليها احد⁽¹⁾- للعلوم الاجتماعية والإنسانية.

2. علم اجتماع المعرفة: المسار والمآل: انطلق علماء الاجتماع من إشكالية مصادر المعرفة لأن الفلاسفة اختلفوا حولها ولم يحسموا أمرها؛ فالفلسفة نظرت إلى المعرفة من جهات ثلاث: إمكانية المعرفة، وطبيعة المعرفة، وحدود المعرفة، وكل جهة من هذه الجهات حصل حولها اختلاف لم يحسم أمره إلى يوم الناس هذا. كما ناقش الفلاسفة أهم المقولات المحركة للمعرفة مثل: المكان، والزمان، والعلية، والعدد...إلخ، وعلماء الاجتماع إلى جانب تناولهم لمصادر المعرفة، بحثوا أيضا الأصول الاجتماعية لتلك المقولات التي تناولها الفلاسفة، فأضافوا بذلك إلى نظرية المعرفة عنصرا هاما تجاهلته الفلسفة وهو أثر المجتمع وبنيته في نشأة المعرفة، بهذا تبلور علم اجتماع المعرفة لمعالجة مشكلات ثلاث: مصدر المعرفة، والمقولات التي تبني عليها هذه المعرفة، ومشكلة العلم، على اعتبار أن العوامل الاجتماعية لها أثرها الكبير في اكتساب المعرفة ونشأة العلوم، وترجع هذه النظرية الاجتماعية إلى أصلين رئيسين في تاريخ الفكر الاجتماعي؛ الأصل الإسلامي المتمثل في نظرية ابن خلدون في العمران البشري، والأصل الفرنسي والألماني الذي أخذ أفكار ابن خلدون وبلورها حسب مقتضيات وطبيعة المجتمع الغربي.

نهج كارل ماركس Karl Marx (ت:1883م) نهج ابن خلدون في تحليل المعرفة، وتفسير التاريخ، والكشف عن الأيديولوجيات والحقائق السائدة في المجتمعات، لكنه خالف ابن خلدون في رده الفكر والمعرفة إلى الأسس المادية، فنسب الفكر الغربي البدايات الأولى لعلم اجتماع المعرفة إلى الماركسية،

¹- يقول ابن خلدون عن جدّة علم العمران: "ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة" ينظر:- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، دط، المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر: مصر، 1930، ص32.

وتحللت الذات في الموضوع، وأصبح الفكر يستمد مقولاته من الواقع الاجتماعي، وأفاض ماكس شيلر M. Scheler وكارل مانهايم Mannheim بالنظر إلى علاقتها -أي نظرية المعرفة- بالأصول الثقافية والاجتماعية وردها إلى عناصر وجودية كامنة في بنية الثقافة والمجتمع⁽¹⁾.

ووسع علم الاجتماع المعاصر دائرته إلى كافة المسائل المعرفية العامة التي أثارها الفلاسفة، فحاول أن يميّط اللثام عن مشكلة العقل، والحقيقة، وأن يعالج مسألة المادة والحس، وأن يضيف مصادر أخرى للمعرفة استناداً إلى ما تضيفه الحقيقة الاجتماعية من ثراء. ورغم أن دوركايم أشار إلى أن المعرفة أساسها الدين والمجتمع على السواء، إلا أن تصوره للدين ليس هو ذلك التصور الذي يتخذ من الوحي مصدراً محورياً للمعرفة، وإنما هو مفهوم لا يخرج عن معنى الإيديولوجيا. ومجمل القول أن علم اجتماع المعرفة يؤكد الأصل الاجتماعي المادي للمعرفة رغم ما يبدو فيه من تشعب حول مصدر هذه المعرفة؛ أهي في باطن الدين؟ أم هي في بنية الطبقة؟ أم في بنية الثقافة؟ أم في جوف التاريخ؟ لكن لو أنعمنا النظر في كل هذه المفاهيم سنجد أنها تصب كلها في إناء واحد هو المادة، ولا تخرج عن الرؤية الكونية الغربية المبنية على مقولات مادية خالصة.

3. تجربة مالك بن نبي وخصوصية علم اجتماع المعرفة البنّائي: مالك بن نبي (ت: 1973م) حفظ القرآن الكريم وتشرب من الثقافة الإسلامية لأنه مسلم الأصل والمنبت، ارتحل إلى بلاد الغرب وأقام فيها لفترة طويلة، فرأى حياة الغرب وفهم الكيمياء التي تتحكم في تجربته الحضارية، فهو مزدوج الثقافة، عاش عمق المجتمع الإسلامي كما عاش عمق المجتمع الغربي وتفاعل معه وأدرك ما يعتمل فيه، واستفاد من منطق تفكيره، ومن آلياته المنهجية، دون أن يحدث خللاً في منطق الثقافة الإسلامية، فهو متأصل في مناهجه واصطلاحاته، ويرى في التدين والعبودية لله عز وجل نقطة الانطلاق لبناء الإنسان المسلم الذي يعطي الانطلاقة الحضارية، وأدرك أن الحضارة كيان اجتماعي تنبثق في مرحلة من التوتر النفسي الذي ينتجه الوعي السنني، الذي يزيد الإنسان همة وعملية، لهذا سعى جاهداً لإعادة الفعالية للتدين والعقيدة الإسلامية من خلال كتابه: "الظاهرة القرآنية" و"شروط النهضة"، لأنها هي المنبع الأساسي للوعي السنني.

عرف التصوف ورأى فيه رفعة النفس وصفائها وقوة احتمالها إزاء الأزمات والأحداث، يقول مالك بن نبي: "وتغيير النفس معناه اقتدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل من شأن منهج التصوف، أو بعبارة أدق هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد"⁽²⁾، واستفاد من تجربة ابن تيمية والوهابية والبادسية⁽³⁾ من جهة، والتثقيف ومخالطة العلماء من جهة أخرى، واندفع إلى مواجهة الاستعمار وما صاحبه من تشويه لصورة الإسلام، وإفساد المجتمع الإسلامي فكرس بذلك حياته

¹ يُنظر:- إسماعيل، محمد قباري. علم الاجتماع والفلسفة نظرية المعرفة، تقديم: محمد ثابت الفندي، ط2، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية مصر، 1982، ج2، ص4-12.

² - بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تصوير 1986 عن ط: 1981، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1981، ص48.

³ - يُنظر:- بن نبي، مالك. مذكرات شاهد للقرن الطالب، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، سوريا، 1984، ص306.

لمشكلات الحضارة، ورفض التفكير الذري وقال بالتكامل المعرفي، سواء في النظر إلى التراث أو النظر إلى الدين في حد ذاته، فالتجزئة هي التي أفقدت الدين فاعليته لَمَّا توقف الجهد العقلي للمسلم، يقول مالك: "الفكر غالبا ما يكون ذريا في خطواته الأولى، كما كان الحال في أوروبا قبل ديكارت، وكما صارت إليه الحال بعد عصر بن خلدون في العالم الإسلامي عندما توقف كل جهد عقلي"⁽¹⁾.

وهو باعتباره عالم اجتماع رأى ضرورة القيم الأخلاقية في البناء الاجتماعي، "فالدفعة القرآنية الحية" تشحن "عالم الأفكار" بالمعرفة السننية، التي تنعكس على "عالم الأشخاص" فتتحول إلى فضائل أخلاقية تربط أفراد المجتمع، لتنعكس على "عالم الأشياء" فتُحسن تسخيرها لتشكل الحضارة، وكل توقف لهذه الدفعة، يؤدي بالضرورة إلى توقف القيم الأخلاقية، وبالتالي انحطاط المجتمع؛ "حتى إذا وهنت" الدفعة القرآنية الحية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة للوقود"⁽²⁾، لأن الدفعة القرآنية الحية هي التي تثير شرارة التركيب السنني بين عناصر الحضارة: الإنسان، والتراب، والوقت. لهذا أدرك خطورة العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية في مجتمع لا يعرف حقيقة نفسه⁽³⁾. لأنها في بنائها تميز بين الإنسان الأوروبي الجذبي، والإنسان المسلم الطردى⁽⁴⁾.

فما يميز علم اجتماع المعرفة البنائي هو تموقع وتموضع الوحي ببعده الغيبي كمصدر للمعرفة في العوالم الثلاثة⁽⁵⁾؛ في "عالم الأفكار"؛ حين يشحنه بالمفاهيم والسنن الكلية، وفي "عالم الأشخاص"؛ حين يمدّه بالأحكام والقيم الأخلاقية، وفي "عالم الأشياء" حين يروض المادة بالقيم الروحية فتتخذ طابعا جماليا ينسجم مع النسيج السنني الكوني الجميل، فلا يخرج عن التحلي بالجميل الخالق عز وجل.

ومالك بن نبي يرى أن العالمية هي نهاية التجارب الإنسانية وآخر نقطة في معلم الحضارة الغربية، لهذا نبه لما يجب أن يكون عليه دور المسلم في هذه الحالة، حيث يجب أن يتحلى بالمنطق العملي، الذي يوطن المنهجية العلمية السننية، في العوالم الثلاثة، فيتوطن الوعي السنني في الرؤية الكونية، فتحقق رسالة الإسلام العالمية.

¹- بن نبي. وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص16. تظهر بشكل واضح خصوصية علم اجتماع المعرفة عند مالك بن نبي من خلال كتاب: "ميلاد مجتمع" حين اعتبر أن التاريخ هو الذي يتولى صناعة المجتمع وهو الذي يسير به نحو الحضارة، وذلك إذا تحقق لدى هذا المجتمع الوعي السنني الذي يؤهله إلى هذه المرتبة، يُنظر:- بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1986، ج2، ص15-19.

²- بن نبي. وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص27.

³- نفسه، ص33.

⁴- نفسه، ص18.

⁵- يقول مالك بن نبي: "إن الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية.. أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية" ينظر:- بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة القدس عاصمة الثقافة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 2009، ص15. وللاستزادة ينظر أيضا:- بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1987.

4. تقييم التجربة البنائية في مجال علم اجتماع المعرفة: نهج مالك بن نبي نهج ابن خلدون حين اعتبر بأحداث التاريخ، ووظيفها في فهم الاجتماع البشري، فأدرك المركبات الأساسية للثقافة والحضارة؛ فعالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء التي هي عناصر الثقافة، والإنسان والتراب والوقت التي هي عناصر الحضارة، يجب أن تتفاعل في محضن المنهجية العلمية السننية، وتندمج لتكوّن هناك تنمية ثقافية، وتنمية اجتماعية، فتتكون الحضارة ويتحرك التاريخ.

فتوطين الوحي في نظرية المعرفة الإنسانية، يؤدي إلى توطين الوعي السنني في الرؤية الكونية، فيؤدي ذلك إلى بناء الإنسان السنني، فتنج القيم التي تضبط العلاقة بين الأشخاص وتمنح معنى للوقت، فينعكس ذلك على التراب والأشياء، فيتعين مسار التاريخ وتبنى الحضارة، أما إذا استغنى الإنسان عن الوحي حصل انكسار في منحى التطور التاريخي للمجتمع: "وهي لحظة انقلاب القيم داخل حضارة معينة"⁽¹⁾، وبما أن الرؤية الكونية العالمية أصبحت تتحكم فيها الوسائل الرقمية، وأصبح الضمير الإنساني يتكون في ضوء ما تبثه الشبكة العنكبوتية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء كبير منه خارج حدود هويتها الثقافية، والجغرافية، فالثقافة التي تعكس المنظومة القيمية أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي، ولهذا رأى مالك أن البحث عن منظومات قيمية هو أمر لا طائل منه⁽²⁾، ومحاولة استخدام القوة في صد هذا التخطيط أيضا أمر لا طائل منه، وإنما يرى أنه لا بد من الولوج إلى العوامل المعرفية التي تكشف عن سبب عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت، لا بد من إحياء الهمة والفاعلية في هذا الإنسان حتى يدفع مسار التاريخ، ولا يتحقق ذلك إلا بالتدين والعبودية لله عز وجل التي تصل بالإنسان إلى أفق الإحسان الذي يحقق التركيب المنسجم بين عناصر الثقافة، فتنصره النزعتين؛ دعاة الثقافة الأصلية ودعاة الثقافة الغربية، في "السلام العالمي"⁽³⁾، ويتحقق الوعي السنني الذي ينقل الإنسان من الصراع إلى التراحم والمؤاخاة.

وقوة الحس السنني عند مالك بن نبي جعله يدرك أهمية البعد المعرفي لعلم الاجتماع، من حيث أن الدين والوحي يجعل من المجتمع مصدرا مهما من مصادر المعرفة حين يمدّه بالقيم، وهذا ما جعله يتنبأ بأن الأزمة العالمية ستصبح أزمة أخلاقية بالدرجة الأولى، وحمل النخبة الأفريقية مسؤولية هذه الأزمة: "ولا شك أن النخبة الأفريقية ستجد نفسها حيال هذه الحالة -الأزمة الأخلاقية العالمية-، التي سببتها

¹- بن نبي. وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص31.

²- يرى مالك بن نبي بضرورة الإعداد الروحي، لأن هذا الإعداد هو الذي سينتج القيم الأخلاقية، فمصدر الدفع في الإنسان هي الروح ولهذا قال مالك بن نبي: "حين يتوقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل ويفقد الإنسان تعطشه للفهم وإرادته للعمل كما يفقد الهمة وقوة الإيمان"، يُنظر:- مسقاوي، عمر كامل. نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، سوريا، 1986، ص15. والإعداد الروحي لا بد وأن ينطلق من الإيمان، ولا يعني هنا وجود الإيمان وإنما ترسيخ هذا الإيمان، بممارسة الأعمال الشرعية، وهذا هو معنى توطين الوحي في العوالم الثلاثة.

³- يُنظر:- بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1984، ص122.

أوروبا والتي تطلب منها قسطاً أوفر من الصفات الأخلاقية (...) فبقدر ما ترتفع بالجماهير إلى مستوى الحضارة، فإنها ترتفع بالضمير الأوروبي إلى مستوى الإنسانية، لتضع أمامه صورة صحيحة عن الرجل الذي يعده الاستعمار شيئاً تافهاً، فكلما تحضر الإنسان الأفريقي سوف يعطي للأوروبي فكرة أصح عن العالم الإنساني (...) إن العالم مثقل بالعلم وبثقافة الإمبراطورية (...) ومن ثم فما ينبغي أن تقدمه الثقافة الأفريقية لخدمة السلام هو الضمير وليس العلم"⁽¹⁾. والفكرة المهمة في هذا النص أن مالك يرى أن المجتمع الأفريقي مجتمع لا ثقافي، رغم ما يبدو فيه من ركام وتكدسات، وهذا يفسح المجال للفكر السنني أن يتولى بناء ثقافة سننية تتمتع بالأصالة والعالمية معاً، من خلال اعتماد المنهجية العلمية السننية، لإنتاج المعرفة السننية، وتحويلها إلى تربية وتعليم سنني، لتظهر في المجتمع في شكل ثقافة سننية شاملة.

إذن فمالك بن نبي قد برهن أنه لا سبيل إلى قيام تنمية اجتماعية أو ثقافية دون أن تستند إلى فكرة إسلامية حية، تقوم على المنهجية العلمية السننية، التي تنطلق من العبودية الكاملة لله عز وجل، وهي نقطة البداية التي تحقق التركيب الحضاري، ولم يقف عند هذا الحد، بل يرى في قيام الثقافة الأفريقية الحل في إنقاذ الإنسانية، والسؤال هو ما دور علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية؟

المبحث الثاني: دور علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية.

نظر مالك بن نبي بمنهجية علمية سننية إلى مشكلات الحضارة من خلال المجتمع، ونظر إلى المجتمع من خلال حركة التاريخ، فتبين له أن أزمة الأمة المسلمة بدأت منذ حادثة صفين؛ نقطة الانعطاف الأولى التي أدت إلى اضطراب الرؤية الكونية السننية، التي صنعها المصطفى ﷺ، بسبب الانحراف على خط منهاج النبوة من جهة، واضطراب المفاهيم المركزية من جهة أخرى؛ نظراً لتوقف الاستمداد من التجربة النبوية، والاستمرار على مهاجها، واللجوء إلى الاستمداد من التجارب الفلسفية للحضارات المتاخمة، وكرس مشروعه في دراسة مشكلات الحضارة لاستعادة هذه الرؤية الكونية السننية، حيث عكف في كتابه: "الظاهرة القرآنية" على تحديد الجوهر السنني النفسي للحركة النبوية، مستعينا في ذلك على تجلية الذات المحمدية في جميع أطوارها السننية النفسية؛ و إذ يمكن أن نجتمع هذه الأطوار في طورين؛ مرحلة سننية روحية، وهي المرحلة المكية بكاملها، سواء تعلقت برحلته التشكيكية⁽²⁾، التي كانت في عزلته، أو رحلة الإعداد السنني الروحي⁽³⁾، هذا الإعداد الذي يرسخ الوعي السنني ويجعل صاحبه على درجة من

¹- ينظر المصدر نفسه، صص 125-127.

²- يُنظر:- بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 122.

³- يختلف مالك بن نبي مع ابن خلدون ومن سار على دربه في قضية التجربة الروحية للمصطفى صلى اله عليه وسلم، فبينما يرى مالك أن الحياة الروحية اكتملت في العهد المكي منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها الوحي ﷺ، رأى ابن خلدون أن الجانب الروحي استمر حتى المرحلة المدنية، أي أنه حركة مرحلية، فالنبي اقترب شيئاً فشيئاً من عالم المعنى، أي أنه وبالتدرج أصبح أكثر علماً وبقيناً واستدل على ذلك بقصر الآيات المكية وطول الآيات المدنية، يُنظر:- ابن خلدون. المقدمة، مصدر سابق، ص 367. فبروز الظاهرة القرآنية للمرة الأولى يعني تمام الحالة الروحية، لهذا قال مالك بن نبي: " كانت هذه الآية (اقرأ) بالنسبة للنبي وللتاريخ المرة الأولى التي تظهر فيها الظاهرة القرآنية (...) ومن هذه اللحظة أصبح لدى النبي الأمي شعور بأن كتاب قد طبع في قلبه " ينظر:- بن نبي. الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 126. ونجد هذا الأصل عند الباقلاني حيث أثبت بالدليل أن نزول القرآن على قلب النبي ﷺ نزول إعلام و إلهام، لا نزول حركة وانتقال، ينظر:- الباقلاني،

اليقين بالحقيقة، على نحو يبذل كل ما يملك في سبيلها، اليقين الذي جعل بلال وهو في أحلك لحظات التعذيب، يحفظ كلمة واحدة هي التوحيد "أحد"، متجاوزا كل العقبات التي تقف أمام القيام بأمر الله عز وجل، وهو على درجة من الاطمئنان، وليس مجموع التكاليف العبادية والمعاملاتية الدينية، إلا وسيلة في سبيل ارتقاء الإنسان إلى هذا الوعي السنني، الذي يشكل الرؤية الكونية السننية التي يتمخض عنها الفعل المُحَضَّر.

1. علاقة نظرية المعرفة بالرؤية الكونية⁽¹⁾: ترتبط المعرفة الإنسانية والرؤية الكونية عبر التاريخ بمصادر المعرفة التي اختلف الفلاسفة حولها -كما تبين سابقا- وانحصرت في العقل والحس، واستبعد الوحي والحدس تماما نظرا للتخلي عن الدين؛ هذه المسارات المعرفية أنتجت نماذج إنسانية لها رؤية كونية محددة، وعليه فالرؤية الكونية هي التي تقرر مصير النظام المعرفي، لأنها هي التي تحدد مصادر المعرفة والموقف منها، والنظام المعرفي يقوم بتركيب هذه المصادر وصهرها في نسق موحد للاقتراب من الحقيقة، فإذا اختزلت مصادر المعرفة في العقل والوجود دون الوحي فلا يرى العارف إلا جزء من الحقائق المادية الظاهرة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:7)، فهناك تدافع كبير بين الأنظمة المعرفية، فكل نظام معرفي يريد أن يفرض نفسه على الأنظمة المعرفية الأخرى، وحتى يحقق ذلك يلجأ إلى إرساء مفاهيمه وأوليائه وعقائده ومسلماته... في البنية التصورية للأفراد والجماعات بوسائل مختلفة، حتى يهيمن أولا على اللاشعور والعقل الباطن فيؤثر في الرؤية الكونية، ثم ينتقل إلى الشعور ويتحول إلى سلوك يتجسد في الواقع، لهذا فالتأثير متبادل بين، نظريات المعرفة، أو الأنظمة المعرفية والرؤى الكونية⁽²⁾؛ فالتدافع قائم على المعرفة، والذي يمتلك زمام المعرفة وقوة التحكم في المعلومات تكون له الغلبة، لهذا كان لتطور الكمبيوتر في تخزين المعلومات وسرعة معالجتها، وتطور وسائل الاتصال في سرعة بثها وتوصيلها إلى مختلف بقاع العالم، الدور المركزي في التدافع الحضاري، وذلك لأن المعلومة تُبَثُّ بشكل دقيق لتؤدي وظيفة محددة في عملية البناء المعرفي للأفراد والجماعات داخل الدول المستهدفة، فيتم استلابهم عقديا ومعرفيا ووجوديا، فينفصل وجدانهم عن عقيدتهم، وتنفصل إرادتهم عن وجدانهم، وينفصل فكرهم عن واقعهم، فتُشَوِّش رؤيتهم الكونية، ويصابون بحالة من اليأس، والقنوط، والإحباط، ونكران الذات، والانسلاخ عن الهوية، فيلجئون إلى حلول غير واقعية، كالهجرة غير الشرعية، أو الانتحار، أو المخدرات التقليدية والرقمية، أو التلهي بالوسائل الرقمية...إلخ.

أبو بكر. الإنصاف فيما يجوز الاعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط2، مكتبة الخانجي: مصر، 1993، ص97. بهذا يتضح السبب الذي جعل مالك بن نبي يرى بضرورة الإقتداء بالرسول ﷺ.

¹- ينظر:- أبو سليمان، أحمد عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطق الأساس للإصلاح الإنساني، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: عمان، 2014.

²- ينظر:- الزيات، فتحي. الأسس المعرفية للتكوين العقلي المعرفي وتجهيز المعلومات، ط2، دار النشر للجامعات: مصر، 2006، ص561.

2. البعد المعرفي السنني في علم اجتماع المعرفة البنائي: يظهر البعد المعرفي السنني في علم اجتماع المعرفة عند مالك بن نبي من خلال دراسته لشبكة العلاقات الاجتماعية، حيث تبين له ضرورة الوقوف عند المفاهيم النظرية العامة، التي ترجع إليها العناصر التاريخية الخاصة بميلاد مجتمع في التاريخ، فكان المفهوم المركزي الذي وقع عليه اختياره هو؛ "المجتمع"، هذا المفهوم الذي كان محل اختلاف كبير بين علماء الاجتماع، وأول شيء أثار انتباهه هو سبب الاختلاف؛ الذي أرجعه إلى اتخاذ معايير دون غيرها في تحديد مفهومه، وهذا ما دفعه إلى الجمع بين معايير ثلاثة، بمثابة سند لكل تعريف جامع، وهي؛ معيار الأصل؛ الذي يتعلق بالوجهة التاريخية، ومعيار الطبيعة؛ الذي يتعلق بالوجهة التشكيلية أو البنائية، ومعيار الغاية؛ الذي يتعلق بالوجهة الوظيفية، فتأكد له حين طبق هذه المعايير، أن المجتمع الإسلامي من الناحية التاريخية؛ شكّله المنهجية العلمية السننية، التي مارسها المسلمون بدعوة من الرسول ﷺ، هذه المنهجية التي كونتها عقيدة التوحيد.

ومن الناحية البنائية أدت هذه المنهجية إلى تشكيلة اجتماعية متماسكة تماسك الجسد الواحد. أما من الناحية الوظيفية، فقد ربط مالك المجتمع بالحركة السننية، والوجهة السننية، والغاية العبادية. ولهذا يعرف مالك بن نبي المجتمع على أنه: "تنظيم معين ذو طابع إنساني، يتم طبقاً لنظام معين، والنظام يقوم على؛ حركة يتسم بها المجتمع الإنساني وإنتاج لأسباب هذه الحركة، وتحديد لاتجاهها"⁽¹⁾. وقد بين مالك أنه حين تنعدم الحركة يفقد المجتمع تاريخه ويصبح بلا غاية، ولما فسر الحركة في المجتمع الإسلامي بإرجاعها إلى عوامل ترتبط ارتباطاً كلياً بسنن الأنفس، ووجد أن هذه السنن مرتبطة بالقوة الروحية، واكتشف أن مصدر القوة الروحية هي العبودية لله عز وجل أو عودة الظاهرة القرآنية، فإنه قد تقرر عنده بأن عودة الحركة، وبالتالي عودة التاريخ يكون بإدراك البعد المعرفي السنني في عملية البناء الحضاري.

3. أثر علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية: تبين مما سبق أن النظام المعرفي، يولد رؤية كونية، وهذه الأخيرة تؤدي إلى وجود نظام اجتماعي يتكامل مع نظام ثقافي، لأن نظام القيم ومكارم الأخلاق والأنماط السلوكية كلها من إفرازات الثقافة، وعليه فإن أي اضطراب يصيب الرؤية الكونية، يصيب بالضرورة المنظومة الثقافية والمنظومة الاجتماعية⁽²⁾. ولما كانت التربية هي تنمية الشيء على التدرج إلى حد بلوغ كماله، وفعاليتها قائمة على اختيار المنبه المناسب لتنشيط الإرادة، فإن مالك بن نبي ينطلق في بناء الرؤية الكونية السننية من "المثل الأعلى"، لأن: "المثل الأعلى هو أقوى عامل في تقرير خلق الإنسان وفي تعيين مسلكه، لأنه هو وحده الذي يستطيع تنبيه الإرادة وتنظيم جميع الغرائز"⁽³⁾. ولما كان الإنسان له جانبين؛ جانب الضرورات الروحية وجانب الضرورات الحيوية، فإن مالك

¹ - بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 17.

² - ينظر:- قباري محمد، إسماعيل. قضايا علم الاجتماع المعاصر، دط، منشأة المعارف: الإسكندرية، مصر، دت، ص 383.

³ - بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 73.

بن نبي يري بضرورة وجود هذين الجانبين تحت مراقبة المثل الأعلى، الذي هو الدين؛ لأنه السند الوحيد لشحن العقل بالمفاهيم والسنن الكلية، حتى يتجه إلى الكتاب المنظور ليكتشف السنن الأفاقية والسنن الأنفسية ويباشر عملية التسخير والإعمار والاستخلاف، وهو من جهة أخرى السبيل الوحيد لتنظيم الطاقات المتعلقة بالضرورات الحيوية⁽¹⁾، وعلى هذا المستوى يعتبر مالك بن نبي أن الدين هو المثل الأعلى، وهو المنبه الأساسي ومصدر التربية الاجتماعية، وهو الذي تنبثق منه المعرفة التي توطن القيم الأخلاقية في المجتمع.

4. معايير فعالية الرؤية الكونية السننية البنائية: لقد تبين فيما سبق محورية الرؤية الكونية السننية في توليد شبكة العلاقات الاجتماعية، ودور هذه الشبكة في توحيد المجتمع وحركته المتجددة، نتيجة نظام الاستجابة لدى الفرد الذي كيفته العبودية لله عز وجل، وبهذا يمكن رصد معايير الفعالية على مستويين: المستوى الفردي الذي تحكمه السنن الأنفسية، والمستوى الزمني الاجتماعي والتاريخي الذي تشترك فيه السنن الأنفسية والسنن الأفاقية، ولما كان المستوى الفردي هو مستوى شخصي، فإن الرؤية الكونية السننية يمكن فحص معالمها في المستوى الثاني؛ أي المستوى الاجتماعي والثقافي، وهذا بالضبط ما فعله مالك بن نبي حين التمس أسسها وقواعدها من التاريخ، هذه القواعد التي هي ثوابت التاريخ، تلك التي لا يغيرها الزمن على حين يغير المجتمعات، وقد أدرك مالك بن نبي أن: "نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة البناء للقانون نفسه، هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله ﷺ ولكن بلغة أخرى، حين قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها"⁽²⁾، وهذا القانون العام يحث على الرجوع إلى المنهجية العلمية السننية، والرؤية الكونية كما كانت في ميلاد المجتمع الإسلامي الأول، وهي الفكرة التي يبني عليها مالك بن نبي تصوره للبناء الحضاري، إنها فكرة الاستمداد من الحركة المعرفية النبوية، والاستمرار على منهاجه⁽³⁾، وبما أن الحركة السننية النبوية تحوي مرحلتين: مرحلة الإعداد الروحي، ومرحلة البناء والتغيير. فإن المرحلة التي تهتم في هذا السياق هي مرحلة الإعداد السنني الروحي، التي هي بمثابة نقطة الانطلاق في البناء الحضاري، هذه المرحلة التي رأى مالك بن نبي إمكانية إنجازها بطريقتين؛ باستخدام التنمية الاجتماعية؛ إذا تعلق الأمر بشبكة العلاقات الاجتماعية حتى تكون في أكثف حالاتها، وتتخذ صورة "البنیان المرصوص".

والطريقة الثانية باستخدام التنمية الثقافية؛ التي هي انعكاس لما تثمره سنن الهداية من رحلة العبودية حين تصل أعلى درجاتها وهي الإحسان والطمأنينة⁽⁴⁾، وهذا يؤكد محورية العبودية لله في بناء الرؤية الكونية السننية، ومحورية هذه الرؤية في الأفعال المنعكسة على تاريخ شبكة العلاقات

¹- ينظر:- عبيد، محمد رشيد. الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل، ط1، دار القادري: بيروت، لبنان، 1992، ص117.

²- بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص76.

³- ينظر:- عبده، محمد. رسالة التوحيد، تحقيق طاهر الصباحي، دط، دار الهلال، دت، ص209. حيث عرض علاقة هذا الصلاح بعقيدة التوحيد، وعلاقة التوحيد بالعبودية الكاملة لله عز وجل.

⁴- يُنظر:- حوى، السعيد. تربيتنا الروحية، دط، مكتبة رحاب، الجزائر، دت، ص73، حيث حاول أن يطبق فكرة مالك بن نبي.

الاجتماعية، أي كلما أحاط الإنسان بالسنن الأنفسية، عرف انعكاساتها على المستوى الاجتماعي؛ إذن فكرة التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي تبدأ من هنا، يقول: "لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذج الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى؛ لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي، ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات، التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية، في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع"⁽¹⁾، بهذه الطريقة تدخل الرؤية الكونية السننية كنتيجة عملية للتدين والعبودية الكاملة لله عز وجل، "فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، وهو يخلق بعمله هذا أيضا شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض"⁽²⁾، فالمعيار المركزي لفعالية الرؤية الكونية السننية هو العبودية الكاملة لله عز وجل.

المبحث الثالث: أثر الرؤية الكونية السننية البنابية في تحقيق التنمية الاجتماعية.

بتوطين الوعي السنني تتضح معالم الرؤية الكونية، ويستقيم مسار المنهجية العلمية، ويرتبط عالم الشهادة بعالم الغيب، ويكون ذلك بأداء الوظيفة المركزية للإنسان وهي العبودية الكاملة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56) وهذا العمل من شأنه أن يخلق القوة الروحية، ويحفز الإرادة عن العمل، وقد وجد مالك بن نبي في قوة المجتمع الإسلامي الأول دليلا، فحين يصل الإنسان إلى مرتبة الإحسان تصل الروح إلى أوج قوتها، فينتج نظام الانعكاسات الذي يغير سلوك الفرد، وهذا التغيير سيمده بالحياة، ويحقق له قوة الدفع والحركة نحو التنمية الاجتماعية، إذن فالعمل الأول يحكمه الوعي بالسنن الأنفسية وينتج القوة الروحية، والاندفاع نحو العمل الذي يمثل الجانب الثاني: الذي يتعلق بحركة التغيير التي تحركها السنن الآفاقية، فكل فرد في المجتمع تتحقق له القوة الروحية يدخل في التغيير ويساهم في حركية البناء الحضاري وسير حركة التاريخ والبناء الحضاري: "هكذا ترى أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع، ومن المعلوم أن أعظم التغييرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار العبودية الكاملة لله عز وجل"، وبما أن تحقيق هذا الوعي السنني حدث في التاريخ فعلا، فغنه يمكن إحداثه في الظروف الجديدة.

ويعتقد مالك بن نبي أن الإنسانية الآن وصلت إلى حالة من الوعي يجعلها أكثر تهيؤا لقبول رسالة الإسلام، مما يجعل الظروف مناسبة لاستئناف حركة التاريخ، لهذا بات من الضروري الإقتداء بسيد المرسلين محمد ﷺ، سواء في جانب الإعداد الروحي، أو جانب التغيير، وإذ ذاك تصبح السيرة والسنة النبوية المطهرة هي المرجع الأساسي، وتتبع الحركة النبوية بدقتها ودقيقها أمر من الأهمية بمكان، وحين يلاحظ المصلح بأم عينه التغييرات المثيرة التي تحصل على المستوى الفردي⁽³⁾ والاجتماعي سيصاب

¹- بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص78.

²- نفسه، ص79.

³- يُنظر:- محمود، عبد الحليم. التربية الروحية، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية: القاهرة، 1995، ص181.

بالدهشة، وقد أتيح لمالك بن نبي الكثير من الفرص ليلاحظ هذه التغيرات، ورأى في التصوف النهج الأساسي لتحقيقها من جديد⁽¹⁾، وقد اتجه مالك بن نبي لفحص حركة التاريخ لإدراكه أن التاريخ الإسلامي: "لم يترك وثيقة عن التغيير ذي الطابع التجميلي الذي كان قد صحب ميلاد المجتمع الإسلامي"، وإنما زدنا بالجانب النظري، الذي يخول لنا أن نستنبط السنن التي تتيح تحقيق النهضة للمجتمع الإسلامي.

ولهذا فإن التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي، تتطلب معرفة السنن التي تحكم الإنسان ككائن طيني بيولوجي، حتى يتم فهم الطاقة الحيوية المنطلقة بواسطة الغرائز، ثم معرفة السنن الأنفسية لتحويل هذه الطاقة إلى طاقة تستطيع النفس تكييفها والتحكم فيها لتوجيهها بحسب مقتضيات الطاقة الاجتماعية⁽²⁾، هنا بالذات يتحقق النشاط المشترك للمجتمع وتتكون شبكة علاقاته الاجتماعية، أي أن القوة الروحية للفرد تحقق انعكاسات توجه الطاقة الحيوية بحسب المقتضيات الأخلاقية، فتتكون شبكة العلاقات الاجتماعية، التي بدورها تحقق التماسك بين أعضاء المجتمع، من جهة ومن جهة أخرى تجمع تلك القوى الروحية في قوة واحدة تسير في اتجاه واحد هو اتجاه التاريخ⁽³⁾، لتوظف السنن الأفاقية في التسخير والإعمار.

المنطلق يكون من العبودية الكاملة لله عز وجل، منها تشحن النفس الطاقة الروحية الكافية⁽⁴⁾، والعقل يشحن بالمفاهيم المركزية والسنن الكلية، فيندفع المسلم إلى الحركة والتغيير والتنمية الثقافية والتربية الاجتماعية أو توصيل فعل التجربة الإيمانية هي مرحلة من أجل بناء فكرة، ولا يكفي إبداع الأفكار بل يجب ممارستها وتطبيقها، بعد أن تؤمن لها الحياة⁽⁵⁾، وتأمين الحياة يعني إيجاد الأرضية المناسبة لهذه الفكرة، والأرضية المناسبة تتعلق بحالة الذات، ولهذا اعتبر مالك أن مشكلة العلاقات الاجتماعية في عمقها: "تتصل من حيث طريقة حلها بالشروط النفسية الزمنية التي تقوم عليها حضارة، أي بشروط لا تحققها مجرد ثقافة مهنية بل ثقافة جذرية تغير معالم الذات"⁽⁶⁾، والنظر إلى الذات الإنسانية هو نظر إلى أعمارها النفسية الثلاثة⁽⁷⁾؛ وجد العمر الأول في الطفولة: "حيث في هذه المرحلة تصوغ النفس أحكامها طبقاً لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء، بحيث تكون أحكامها في أبسط صورها،

¹- يُنظر:- بن نبي، مالك. في مهب المعركة إرهابات الثورة. ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1981، ص167. حيث بين سبل توظيف التصوف في الظروف الجديدة.

²- يُنظر:- البهي محمد. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه، دط، الدار القومية: بيروت، دت، ص387.

³- نفسه، ص426.

⁴. مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة، ص22.

⁵. مالك، بن نبي: من أجل التغيير، ص43.

⁶. مالك، بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص49.

⁷. هذه الفكرة موجودة عند ابن خلدون، وقد استخدمها مالك، كما وظفها جودت، سعيد في مشروعه رياح التغيير وظهرت أكثر في كتابه: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط7، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1993، ص143.

معتمدة على الحاسة، أو ناتجة عن الحاجة البدائية"⁽¹⁾، أما في العمر الثاني فتصوغ النفس أحكاما طبقا لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة، أي صادرة عن عالم الأشخاص، ففي هذا الطور لا تكون الفكرة حرة من تجسيد، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذي يجسدها في نظر المقتدي، وهنا بالذات كان منطلق طه عبد الرحمن، أي أنه ينظر إلى بداية التغيير والإصلاح⁽²⁾ من هذه الزاوية، إنه يقول بالقدوة المشخص. أما العمر الثالث، فتصبح الفكرة عند النفس ذات قيمة في حد ذاتها، دونما تأييد من عالم الأشخاص وعالم الأشياء، وهذا هو المعنى الذي يريده مالك بن نبي من الاقتناع الشخصي بالفكرة، وهنا بالذات يكون ضمان الأمان للفكرة؛ إذ تصبح الفكرة لا تحتاج إلى ضمان قيمتها من طرف شخص معين، لأنها وصلت إلى درجة الرسوخ في نفس كل مسلم، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران/144)، وهكذا فالفكرة الحية ليست في حاجة إلى حماية، بل هي في حاجة إلى عنصري التحصيل والتوصيل، وهذا هو منطلق مالك بن نبي وغايته، إنه يريد أولاً أن ينطلق من تجربة تستغرق النفس وهي في مرحلة طفولتها، ثم التدرج معها إلى مرحلة شبابه حتى بلوغ النضج، وحتى تنضج وتصل إلى تمام القوة الروحية، تبدأ المرحلة الثانية من التجربة الإيمانية، والبداية. كما تبين. تكون بالقراءة والعلم، والشروع في تطبيق الأعمال الشرعية، متجاوزا كل العوائق التي يمكن أن تصد هذه العملية⁽³⁾.

لهذا نجد في موضع آخر، يربط استعادة الأفكار بالحياة الاقتصادية، ويتأمن الخبز اليومي⁽⁴⁾، فبداية الإصلاح يجب أن تنطلق من الحث على العمل، وأداء الواجب قبل المطالبة بالحقوق، لأن أداء الواجب في نظر مالك بن نبي يقوي الإرادة ويدفع الهمم⁽⁵⁾.

وعملية التربية هذه تتطلب دراسة موقفين: موقف المتلقي من الناحية النفسية، وموقف الملقن من الناحية الفكرية، إذن فالإصلاح يتطلب فكرا معيناً عند المصلح، وحالة نفسية عند المتلقي، لهذا قال مالك بن نبي: "إن الذي ينقص المسلم ليس هو منطق الفكرة ولكنه منطق العمل والحركة"⁽⁶⁾، ينقصه

1. مالك، بن نبي: القضايا الكبرى، ص 188.

2. يراد بالإصلاح هنا الإصلاح الاجتماعي الذي يهدف إلى رد الاعتبار للقيم الإسلامية، والسير بها من نقطة الركود التي وقفت عندها في حياة المسلمين، نقطة صفين، إلى حياة المسلم المعاصر، راجع: محمد، البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط6، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1973م، ص421. وقد تبنت هيام الملقى المنطلق نفسه في مشروعها: التجارب الروحية بين التأصيل الإسلامي والاعتزاز الثقافي تجديد الصلة بالله، مرجع سابق، وصرحت بذلك، ص20.

3. أورد مالك بن نبي العلاج اللازم في كتابه: القضايا الكبرى، ص172، وأيضا العملية الأولية التي هي التطهير النفسي، في الكتاب نفسه، ص111، وهنا طرح سؤالاً مهماً؛ ما هي النزعة الإسلامية التي ندرجها في بنائنا المفاهيمي؟، ثم أجاب بوضوح قائلا بضرورة إحياء الحياة الروحية، وهذا بالطبع يكون بالوعي السنني والمنهجية العلمية السننية ص123، كما أنه صرح بأنه وجد لمشكلة الأفكار حلا، والمتفحص لمضمون هذا الحل يكتشف أنه الوعي السنني، راجع كتابه: مشكلة الأفكار، ص162.

4. مالك، بن نبي: مشكلة الأفكار، ص113.

5. مالك، بن نبي: مذكرات شاهد على قرن الطالب، ص389.

6. مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة، ص87.

الفعل السنني: " وقد جاءت كل الديانات لترويض الطاقة الحيوية للإنسان وجعلها مخصصة للحضارة⁽¹⁾، وبناء على ذلك يضع الدين الحرية الفردية بين حدود عمل المجتمع ومقتضيات الحرية الخاصة بهذا المجتمع"⁽²⁾، فالمهمة الأساسية للرؤية الكونية السننية أن تول الوعي السنني إلى فعل سنني يظهر على مستوى عالم الأشخاص، وفي مستوى عالم الأشياء.

الخاتمة

في ختام هذا البحث نصل إلى النتائج التالية:

أولاً: إن القضية التي شغلت ابن خلدون حين أراد أن يفهم الظاهرة السياسية هي؛ كيفية تحويل التاريخ إلى علم حتى يصبح مدخلا صحيحا لفهم العمران البشري، وهنا اهتدى ابن خلدون إلى المنهجية العلمية السننية، وأسس الجوانب المعرفية والمنهجية الجديدة لعلم التاريخ، وعلم العمران البشري وباقي العلوم، وهذا يمكن إرجاع علم اجتماع المعرفة في نشأته الصحيحة المتوازنة إلى ابن خلدون دون أدنى شك أو ريب.

ثانياً: إن علم اجتماع المعرفة في صورته الحالية هو علم غربي المبني والتوجه، إذ بالرغم مما يبدو من توسع في دائرته، وتعدد في مشاربه ومصادره؛ فهو أحياناً يظهر أنه نبع من باطن الدين، وأحياناً يتبين أنه خرج من جوف التاريخ، وأحياناً يُعتقد أنه كامن في بنية الطبقة أو في بنية الثقافة، والحقيقة أن مفاهيمه ووكلياته ومسلماته ومناهجه لا تخرج كلها عن الرؤية الكونية الغربية المبنية على مقولات مادية خالصة.

ثالثاً: إن ما يميز علم اجتماع المعرفة البنائي هو إدخال الدين والوحي كعامل أساسي في الرؤية الكونية، والبنية الحضارية، والنظام المعرفي؛ فالدين يشحن عالم الأفكار بالمعرفة السننية التي تنعكس على عالم الأشخاص فتتحول إلى فضائل أخلاقية تربط أفراد المجتمع في بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، فتنعكس على عالم الأشياء، ليُحسن الإنسان تسخيرها، وإعمار الأرض فتتحقق التنمية الاجتماعية والثقافية وتتشكل الحضارة.

رابعاً: إن نقطة الانطلاق تكون من التربية والقدوة، باسترجاع المحضن التربوي النبوي الذي يوظف نعم السمع والأبصار والأفئدة أحسن توظيف؛ فيبدأ بالاستماع إلى تلاوة آيات الله في كتابه العزيز، ثم تزكية النفس وتخليتها من كل الأدران، ثم تعلم الكتاب والحكمة، فيحصل الوعي السنني الذي يؤدي إلى الفعل السنني فتحصل الانطلاقة الحضارية.

¹ "خطرات في الدين والنفس"، كتاب يتحدث عن الترويض النفسي بالدين، ويستخدم منهج التحليل النفسي الذي استخدمه مالك بن نبي، لصاحبه: أحمد ماهر محمود، البقري: خطرات في الدين والنفس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1977م، راجع الصفحات: من 11 إلى 30 حيث يبين كيف يتم تطوع الضرورات الحيوية، بواسطة الأعمال الشرعية.

² مالك، بن نبي: القضايا الكبرى، ص110.

وعليه يوصي البحث بمداولة الأبعاد السننية في فكر مالك بن نبي، والكشف عن سبل إنتاجها، وسبل تشغيلها، وبحث معالم المنهجية العلمية السننية عنده وكيفية توظيفها في تفسير التاريخ وفقه الواقع.

والله نسال أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، دط، المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر: مصر، 1930.
- أبو سليمان، أحمد عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطق الأساس للإصلاح الإنساني، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: عمان، 2014.
- إسماعيل، محمد قباري. علم الاجتماع والفلسفة نظرية المعرفة، تقديم: محمد ثابت الفندي، ط2، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية مصر، 1982، ج2.
- الباقلائي، أبوبكر. الإنصاف فيما يجوز الاعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط2، مكتبة الخانجي: مصر، 1993.
- بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1987.
- بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة القدس عاصمة الثقافة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 2009.
- بن نبي، مالك. مذكرات شاهد للقرن الطالب، ط2، دار الفكر: دمشق، سوريا، 1984.
- بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1984.
- بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1986، ج2.
- بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تصوير 1986 عن ط: 1981، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1981.
- البيه، محمد. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط6، دار الفكر: بيروت، 1973.
- البيه، محمد. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه، دط، الدار القومية للنشر والتوزيع: بيروت، دت..
- الزياد، فتحي. الأسس المعرفية للتكوين العقلي المعرفي وتجهيز المعلومات، ط2، دار النشر للجامعات: مصر، 2006.
- سعيد، جودت. حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط7، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1993..
- عبده، محمد. رسالة التوحيد، تحقيق: طاهر الصباحي، دط، دار الهلال، دت.
- عبيد، محمد رشيد. الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل، ط1، دار القادري: بيروت، لبنان، 1992، ص117.

- قباري محمد، إسماعيل. قضايا علم الاجتماع المعاصر، دط، منشأة المعارف: الإسكندرية، مصر، د ت.
- محمد عاطف، غيث. دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، 1975م.
- محمود، عبد الحليم. التربية الروحية، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية: القاهرة، مصر، 1995.
- مسقاوي، عمر كامل. نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، سوريا، 1986.
- نبيل عبد الحميد، عبد الجبار. تاريخ الفكر الاجتماعي، دط، دار دجلة: الأردن، 2009م.